الثنائيات الضديّة في المفضَّليات

المدرّس / الدكتور سعد سامي محمد
الكلية التربوية المفتوحة / مركز البصرة

الملخص

تعرض هذه الدراسة لموضوعة الثنائيات الضدية التي تسجل حضورها اللافت في نصوص المفضليات ، تلك الثنائيات القائمة على الاختلاف والتضاد بين مفردتين ، حاول الباحث أن يرصد حركتها ويقف عند تمظهراتها ليكشف عبرها عن طبيعة موقفه من الآخر ورؤيته للحياة والأشياء فعرض في المبحث الأول لثنائية حضور والغياب في عالم الأطلال وتناول في المبحث الثاني ثنائية الشيب والشباب ، أما المبحث الثالث فوقف عند ثنائية الموت عند الحياة .

التمهيد

الثنائيات الضدية (تأصيل المفهوم والمصطلح)

الثنائية لغة :

الثنائية في اللغة مؤنث ثنائي مشتق من (ثنى) ، ينثني وهو تكرير الشيء مرتين أو جعله شيئين متوالين أو متباينين ، وذلك قولك (ثنيت الشيء ثنياً) .[1]

الثنائية اصطلاحاً :

الثنائي هو (من الأشياء ما كان ذا شقين.. والثنائية القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون وتعاقبها او ثنائية الواحد والمادة من جهة ما ، هي مبدأ العدم واليقين أو

ثنائيــة الواحــد وغــير المتناهــي عنــد الفيثاغوريــين) . [٢]

التضاد لغةً :

تــدور دلالــة التضــاد في المعاجــم العربيــة حــول معنــى الخــلاف ، ذلــك أنَّ (ضــد الــشيء وضــد يــده : خلافــه) . [٣]

التضاد اصطلاحاً :

يعــد ســيبويه مــن أوائــل العلــماء اللذيــن عرضــوا لموضوعــة التضــاد ، وخصّــه بالذكــر في كتابــه بقولــه (أعلــم مــن أن كلامهــم اختــلاف اللفظتــين لا اختــلاف المعنيــين ، واختــلاف اللفظــين والمعنــى واحــد واتفــاق اللفظــين واختــلاف المعنيــين ، فاختــلاف اللفظيــين لاختــلاف المعنيــين هــو نحــو : جَلَــسَ ، وَذَهَــبَ ، واختــلاف اللفظيــين والمعنــى واحــد نحــو : ذَهَــبَ وانطلــقَ ، واتفــاق اللفظتــين والمعنــى مختلــف قولــك : وَجَــدْتُ عليــه مــن المَوْجدة ، ووجــدْت إذا أردت وجــدان الضّالــة) . [٤]

فالتضــاد هــو دلالــة اللفــظ الواحــد عــلى معنيــين كل منهــما ضــد الآخــر [٥] ويــرى بعضهــم أنّــه (نــوع مــن الاشــتراك اللفظــي) [٦]

ولاشــك أنّ الثنائيــات هــي فكــرة قديمــة ، فــكل شيء في الكــون قائــم عــلى ثنائيــة الــشيء ونقيضــه كالليــل والنهــار والنــور والظــلام والذكــر والأنثــى والحيــاة والمــوت... وليــس أدل عــلى ذلــك قولــه تعــالى {وَمِــن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَــا زَوْجَــيْنِ لَعَلَّكُــمْ تَذَكَّــرُونَ} [٧] ولهــذا المفهــوم حضــوره اللافــت في الــدرس البلاغــي والنقــدي الحديــث ويعــد العــالم اللغــوي فرديناــنــو دي سوســير مــن أوائــل العلــماء الذيــن وظفــوا تلــك الثنائيــات في دراســاتهم اللغويــة ، منطلقــاً مــن مفهــوم (الرؤيــة الثنائيــة المزدوجــة للظواهــر) [٨]

وأشــار ديفيــد ديتــش بهــذا الصــدد الى فاعليــة تلــك الثنائيــات وجدواهــا في أحــداث (التــوازن أو التآلــف بــين الصفــات المتضــادة أو المتضاربــة ، فهــي توفــق بــين المؤتلــف والمختلــف والعــالم المحســوس والفكــرة والصــورة والفــرد والنمــوذج والطريــف والتليــد وتجمــع حالــة مــن الانفصــال غــير عاديــة الى درجــة مــن النظــام عاليــة) [٩]

ذلــك أنّ العلاقــات بــين الثنائيــات (قــد تكــون علاقــات نفــي وســلب وتضــاد مطلــق.... وقــد تكــون علاقــات

توسط تهدف الى إعادة الخلق عبر التحول والتحويل) [١٠]

ومن هنا فإنَّ البحث يسعى الى استكشاف تلك الثنائيات وبيان دلالتها في نصوص المفضليات عبر إعادة قراءتها قراءة نقدية تستهدف بنية النصوص ذاتها ، وإنْ كان التحري عن تلك (الثنائيات ورصد حركتها وبيان خباياها ليس أمراً هيناً طالما أنّ تلك النصوص تعود الى شعراء تختلف توجهاتهم وتتباين البيئات التي ينتمون إليها ولاشك ان نصوص المفضليات تحمل بين طياتهم ثنائيات ضدية متعددة غير أنّ البحث سيقف عند أكثرها حضوراً وأثراً في الكشف عن موقف الذات الشاعرة إزاء الأشياء ، وقد تضمن المبحث ثلاثة محاور :

المبحث الأول : (الطلل ثنائيه الغياب ضد الحضور)

للأطلال حضورها اللافت في ذاكرة ووعي الشاعر العربي القديم ، فهي من الافتتاحيات البارزة في القصيدة العربية القديمة ، ذلك أنّ الأكثر تجسيداً لأحاسيس الشاعر وتجربته الذاتية ، فالذات الشاعرة عند وقوفها على الأطلال تستشعر وطأة الزمن وحاضرها السالب ، لذلك فهي تستدعي الماضي الجميل ، الذي يمثل حضورا لتواجه عفاء الحاضر ، ولعلّ ما يسترعي انتباهنا في احايين كثيرة هي مشاعر الحزن والبكاء التي تطلقها الذات الشاعرة وهي هنا لا تبكي ماضيها الذاهب بل حاضرها السالب [١١]

ولهذا فإنّ النص الطللي يمثل عالما زاخراً ومكتنزاً بالثنائيات المتضادة ، فهو عالم يجمع بين الحركة والسكون والموت والحياة والوجود والعدم ، إذ عبره (تنتقل الذات من مستوى اللقاء الى الفراق) [١٢] ، فتجربة الأطلال تكشف عن عمق مأساة الذات الشاعرة ، فهي تعد كوناً حافلاً بالثنائيات المتضادة ويمكن رصد حركتها وتمظهراتها عند العديد من شعراء المفضليات ، يقول المخبل السعدي : [١٣]

١	ذكَرَ الرَّبابَ وَذِكرُهـــا سُقمُ	فَصَبا وَليسَ لِمَن صَبـا حِلمُ
٢	وَإذا أَلَمَّ خَيـــــالُها طُرِفَت	عَيني فَماءُ شؤونِهـــا سَجِمُ
٣	كَاللُؤلُؤِ المَسجورِ أُغفِلَ في	سِلكِ النِظامِ فَخانَهُ النَّظـــمُ
٤	وَأَرى لَها داراً بِأَغدَرَةِ الـــ	سِّيدانِ لَم يَدرُس لَهـا رَسْمُ
٥	إِلّا رَمـــــاداً هامِداً دَفَعَت	عَنهُ الرياحَ خَـــوالِدٌ سُحمُ
٦	وَبَقِيَّةُ النُـــؤيِ الَّذي رُفِعَت	أَعضادُهُ فَنَـــــوى لَهُ جَذمُ
٧	فَكَأَنَّ ما أَبقى البَوارِحُ وَالـــ	أَمطارُ مِن عَرَصاتِها الوَشمُ
٨	تَقرو بِها البَقَرَ المَسارِبَ وَاخـ	تَلَطَـــــت بِها الآرامُ وَالأُدمُ
٩	وَكَأَنَّ أَطلاءَ الجَـــآذِرِ وَالـ	غِزلانِ حَولَ رُسومِها البَهمُ
١٠	وَلَقَد تَحِلُّ بِها الرَبـــابُ لَها	سَلَفٌ يَفُلُّ عَـــدُوَّها فَـــخمُ

ينطوي المشهد الطلي في قصيدة المختل السعدي على ثنائيتين ضديتين هما ثنائية الحضور والغياب ، فالذات الشاعرة في زمنها الماضي كانت فاعلة وتنعم بلقاء الحبيبة ، أما في زمنها الحاضر فهو زمن اللافعل ، إذ يستولى عليها الحزن وتستشعر الفقد بعد رحيل الحبيبة فاستحال حضورها غيابا فليس أمامها من سبيل إلاّ التذكر فالطلل هو (مكان يطلق منه الشاعر الى مكان الذكرى والحلم) [١٤] ، والذكرى تثير لواع الذات الشاعرة فيلفّها الحزن وليس لها من قدرة على مواجهة حالة الفقد هذه سوى البكاء (البيت الثاني) ، (فالشاعر عند وقوفه بالطلل يستشعر معنى التحول الذي يلم بالموجودات) فينتقل من حال الى حال ، من العمران الى الخراب ، من الحياة الى الموت) [١٥] ولعل ما أثار الشاعر وزاد من حالة التوتر التي تعتريه هو أنّ أجزاء المكان لم تمنح جميعها ، إذ لازالت بعض أجزائها شاخصة تهيج الذكرى .

البيت الرابع : (وارى لها داراً ← لم يدرس لها رسم)

وتبدو ثنائية الحضور والغياب جلية في هذا المشهد الطلي فالديار كانت عامرةً ثم استحالت الى فناء ، فالحركة الأولى تبدأ بالزمن الماضي : (ذكر الرّباب) ويقابلها في البيت

الرابع حركة الفعل في الزمن الماضي (ذكر– أرى) فصورة الحبيبة تبدو حاضرةً في ذاكرة الشاعر غير قابلة للنسيان اذ يشبه خيالها الذي لا يغادره أبدا بالوشم ، والملاحظ أنّ الخيال هو طبيعة اللاوجود في حين أنّ الوشم طبيعة البقاء وحركة الحبيبة ورحيلها عن المكان تقابلها حركة ضدية أخرى تتمثل في إدلال الحيوانات (البقر والآدام) في المكان غياب الحبيبة– حضور الحيوان

وهنا يمكن القول : ان الشاعر أراد لهذا الطلل الذي يمثل الماضي البقاء والخلود ، فالرماد علامة رامزة للفناء والانمحاء وهو يتضاد مع الوشم الذي هو علامة دالة على البقاء ، ذلك أن الزمان ينأى بنا عن ماضينا ، ولكنه لا يفصلنا تماما عن هذا الماضي ولم لم يكن الماضي عملا ثقيلا يرين على كاهل الإنسان ، لما كان الزمان قيدا بغيضا أو حدا أليما ، فنحن نضيق ذرعا بالزمان ، لأننا نشعر بأنه لا يسير إلا في اتجاه واحد ولا يقبل الإعادة بأي حال من الأحوال ولا سبيل الى محوه او القضاء عليه .. وربما كان أقسى ألم يعانيه هو ذلك الألم المنبعث من استحالة عودة الماضي وعجز الإنسان في الوقت نفسه عن إيقاف سير الزمان) (١٦)

وتبدو الثنائيات الضدية فاعلة في الكشف عن تجربة الفقد التي يعانيها الشاعر في مشهد الأطلال ويمكن أن نستشف ذلك بوضوح في

قصيدة الشاعر المرقش الأصغر الذي يفتتحها قائلا : [١٧]

١ أَمِنْ رَسْمِ دارٍ ماءُ عَيْنَيكَ يَسْفَحُ غَدا من مُقامٍ أَهْلُهُ وتَرَوَّحُوا
٢ تُزَجِّي بِهَا خُنْسُ الظِّباءِ سِخالَهَا جَآذِرُها بالجَوِّ وَرْدٌ وأَصْبَحُ
٣ أَمِنْ بِنْتِ عَجْلانَ الخَيالُ المُطَرَّحُ أَلَمَّ ورَحْلِي ساقِطٌ مُتَزَحْزِحُ
٤ فلمَّا انْتَبَهْتُ بالخَيالِ وراعَنِي إذا هُوَ رَحْلِي والبِلادُ تَوَضَّحُ
٥ ولكِنَّهُ زَوْرٌ يُيَقِّظُ نائِماً ويُحْدِثُ أَشْجاناً بقَلْبِكَ تَجْرَحُ
٦ بِكُلِّ مَبِيتٍ يَعتَرِينا ومَنْزِلٍ فلوْ أَنَّها إذْ تُدْلِجُ اللَّيْلَ تُصْبِحُ
٧ فوَلَّتْ وقد بَثَّتْ تباريحَ ما تَرى ووجْدِي بها إذْ تَحْدُرُ الدَّمْعَ أَبْرَحُ
٨ وما قَهْوَةٌ صَهْباءُ كالمِسْكِ ريحُها تُعَلَّى على النَّاجُودِ طَوْراً وتُقْدَحُ
٩ ثَوَتْ في سِباءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً يُطافُ عليها قَرْمَدٌ وتُرَوَّحُ
١٠ سَباها رِجالٌ من يَهُودَ تَباعَدُو لِحِيلانِ يُدْنيها من السُّوقِ مُرْبِحُ
١١ غَدَوْنا بِصافٍ كالعَسِيبِ مُجَلَّلٍ طَوينَاهُ حِيناً فَهْوَ شِرْبٌ مُلوَّحُ

ان عالم الأطلال الذي يصوره المرقس الأصغر يكشف عن زمنين متضادين الزمن الأول زمن الماضي (حضور الحبيبة) ، أما الزمن الثاني زمن الحاضر (رحيل الحبيبة) ، وغياب الحبيبة عن المكان يقابله حضور (الحيوان الضباء والبقر الوحش) الذي يجسد حضورها علامة من علامات غياب الحبيبة من المكان فالمكان الطلل أضحى رمزاً للموت والحياة في الوقت عينه فرحيل الحبيبة علاقة دالة على الموت والعفاء وحضور الحيوان يمثل وجوداً من نوع آخر وهكذا تؤدي تلك الثنائيات دوراً مهماً في عالم الأطلال بعدها الوسيلة الناجعة للكشف عن البنية العميقة للنص ومن هنا يمكن القول ان الثنائيات الضدية تشكل (بنية مركزية فاعلة تكشف عبر وظيفتها أنماط الأنساق المتضادة داخا الخطاب إذ تتحد الضديات عند الشاعر لخلق تصورات معينة تجاه الكون والحياة) [١٨]

ومن هنا يتراءى لنا أن الشاعر حاول في هذا السياق أن يوظف

تلك الثنائيات ليكشف من خلالها عن حالة الفقد التي تعتريه بعد رحيل الحبيبة وذلك ان رحيلها عن المكان في عالم (الواقع) ¬ يقابله حضورها في عالم (الرؤية) إذ تبدو صورتها حاضرة في كل أرجاء المكان (بِنْتِ عَجْلانَ الخَيالُ المُطَرَّحُ..... .....) البيت الثالث .

فالأنا الشاعر يستدعي صورة الحبيبة الغائبة أثناء النوم ولكنه حينما انتبه لم يجد إلا رحله !

ومن هنا يمكن القول أنّ لجوء الشاعر الى استحضار خيال الحبيبة هو بمثابة تعويض عن حالة الفقد التي يعتريه والحزن الذي يلفيه بعدما رحلت عنه الحبيبة ، وبالتالي يكون هذا الاستدعاء الوهمي لصورة الحبيبة الراحلة عن المكان ما هو إلا محاولة من محاولات الذات الشاعرة للتخفيف عن معاناتها فضلا عن ذلك فهو يؤدي وظيفة في العمل الشعري اذ يغني النص ويضفي على القارئ صفة التشاركية التي تجعله يستشعر معاناة الشاعر وما ينتابه من ألم نفسي وشعور بالحيف إزاء حالة الفقد هذه [١٩]

والملاحظ أنّ الشعراء بارتدادهم الى الماضي وكأنهم يستعيدون قوة الإرادة والرغبة أمام قسوة الواقع والظرف الذي يحيط بهم من كل مكان . [٢٠]

وتبدو ثنائية الحضور والغياب جلية في عالم الأطلال عند المرقش الأكبر إذ يقول : [٢١]

١ ما قلتُ هَيَّجَ عينَهُ لِبُكائِها مَحْسُورَةً باتَتْ عليَّ إِغْفائِها
٢ فكأَنَّ حَبَّةَ فُلْفُلٍ في عينِهِ ما بَيْنَ مُصْبَحِها إلى إِمْسائِها
٣ سَفَهًا تَذَكُّرُهُ خُوَيلَةَ بَعْدَ ما حالَتْ قُرى نَجْرانَ دُونَ لِقائِها
٤ واحْتَلَّ أَهْلِي بالكَثِيبِ وأَهْلُها في دارِ كَلْبٍ أَرْضِها وسَمائِها
٥ يا خَوْلَ ما يُدْرِيك رُبَّتَ حُرَّةٍ خَوْدٍ كَرِيمَةٍ حَيِّها ونسائِها
٦ قد بِتُّ مالِكَها وشارِبَ رَيَّةٍ قبلَ الصَّباحِ كَرِيمةٍ بِسِبائِها
٧ ومُغِيرَةٍ نَسْجَ الجَنُوبِ شَهِدْتُها تَمْضِي سَوابِقُها عَلَى غُلَوائِها
٨ بمُحالةٍ تَقِصُ الذُّبابَ بِطَرْفِها خُلِقَتْ مَعَاقِمُها عَلَى مُطوائِها
٩ كَسَبِيبَةِ السِّرَاءِ ذاتِ عُلالَةٍ تَهْدِي الجِيادَ غَداةَ غِبِّ لِقائِها

إنّ عالم الأطلال هو عالم الضد الذات في الحياة فالمرقش الأكبر تثيره تستشعر إزاءه الذات الشاعرة بالفقد لواعج الحزن عندما يقف في ارجائه فهو رمز الموت في مواجهة رغبة فسيتحضر صورة الحبيب (خولة)

فيجهز بالبكاء مُبدياً حسراته لذكريات مرت ويستولى عليه الهم فلا يستطيع النوم فكل شيء في عالم المكان (الطلل) يقوم على الضد

الماضي × الحاضر

غياب الحبيبة × حضور خيالها

الفرح والسرور مع الماضي × البكاء والحزن في الحاضر

الراحة والنوم بجانب الحبيبة × السهر (صباحاً ومساءاً) في الحاضر

أهلها رحلوا في أماكن بعيده × أهله سكنوا (الكثب) موضوعة الخمرة إذ تنتقل القصيدة من حركة (ضدية) وهي حالة الموت في عالم الطلل الى حركة ضدية موجبة وهي عالم الخمرة ؛

في (دار كلب)

ومن هنا تبدو فاعلية الثنائيات الضدية الظاهرة منها أو الباطنة في أعماق النص في الكشف عن تجربة الشاعر مع الطلل ، فلابد من الاهتمام بدلالة هذه الثنائيات ولذلك يذهب احد الباحثين الى القول : ان اللغة يجب ان توفر صيغا مناسبة لعرض الحقيقة [٢٢] ولهذا يستدعي الشاعر لمواجهة حالة الانقطاع في عالم الأطلال باللجوء الى وسيله تمكنه من مواجهة الغياب وتحقيق الاتصال عبر استحضار

(قد بِتُّ مالِكَها وشارِبَ رَيَّةٍ ....) البيت السادس

فعالم الأطلال هو معاكس لعالم الخمرة التي تعد ينبوعا للتغيير إذ تمنح شاربها قوة للسيطرة على الزمن [٢٣]

فهي في وعي الشاعر هنا ترمز الى الحياة في مواجهة الموت .

المبحث الثاني : ثنائية الشيب والشباب :

يعد الشيب نسقا مهيمنا في ذاكرة الشاعر العربي القديم وتبدو تجربة

المشيب حاضرة عند الكثير من الشعراء سواء أكان الحديث في مقدمة القصيدة أو في ثناياها إذ يعد الشيب مظهراً من مظاهر القهر والاستلاب الإنساني ، الذي يمارسه الزمن إزاء الإنسان ، وهو علامة دالة عن حالة التحول من القوة الى الضعف ومن الوجود الى العدم ، كان المشيب هاجساً مخيفاً يستشعر حياله المرء بالقلق والتوتر .

(لقد ارتبطت صورة الشيب في ذهن العربي بالهلع والخوف وما يشي بهذا التصور ان الشاعر يتحدث عن زمنين هما : الشباب : ماضٍ والشيب : حاضر ولا يقاوم احدهما الآخر [٢٤] وأمام سطوة الشيب يفقد الإنسان فاعليته لذلك يجد (نفسه في هذه المرحلة يجتر ذكرياته ويتشبث بماضيه ويصبح نهباً لأحلام اليقظة التي لا يجد عنها ميداناً لتحقيق الذات وتعويض ما فات فنجده يشيد الماضي وبما حققه أيام شبابه) [٢٥]

ومن هنا (فإنّ الارتداد الى الماضي يعني أنّ الوعي الشعري وهو يحيا انفصاليته وتأزمه يجعل من تاريخه مقوماً لوجوده الحاضر [٢٦] الذي يبدو غياباً أمام سطوة الزمن ، فالشيخوخة إذن هي مظهر من مظاهر انحلال الحياة وإدبار الشباب ودنو الموت [٢٧]

فالشيب هو الحد النهائي الفاصل بين ثنائيتين ضديتين ثنائية الفعل واللافعل والوجود واللاوجود ويمكن ان نكتشف تداعيات تجربة المشيب وتضادها مع زمن الشباب عند المُزرّد أخو الشمّاخ إذ يقول : [٢٨]

١ صَحَا القلبُ عن سَلْمَى ومَلَّ العَواذِلُ ... وما كادَ لأَياً حُبُّ سَلْمَى يُزَايِلُ
٢ فُؤَاديَ حتَّى طارَ غَيُّ شَبِيبَتِي ... وحتَّى عَلاَ وَخْطٌ من الشَّيبِ شامِلُ
٣ يُقَنِّئُهُ ماءُ اليُرَنَّاءِ ، تحتَهُ ... شَكِيرٌ كأَطْرَافِ الثَّغَامَةِ ناصِلُ
٤ فلا مَرْحباً بالشَّيبِ مِن وَفْدِ زَائِرٍ ... متَى يَأْتِ لا تُحْجَبْ عليه المَدَاخِلُ
٥ وسَقْياً لِرَيْعَانِ الشَّبابِ فإنهُ ... أَخُو ثِقَةٍ في الدَّهْرِ إذْ أَنا جاهِلُ

يستهل المزرّد بن ضرار لاميته بفعل ضدي يكسر من خلاله الصورة النسقية الراسخة في ذاكرة المتلقي للشعر العربي القديم : (صحا القلب عن سلمى....) فالصورة المعتادة افتتاحيات القصيدة العربية ان الحبيبة هي من تبادر بالصد والإعراض ثم النأي عن الديار وليس الشاعر هو من يبدأ بالرحيل والهجر !

ولاشك أنّ موقف الذات الشاعرة هنا له ما يبرره وهو على الضد من فعل المشيب الذي يبدو (علامة بارزة على عجز الإنسان وإحساسه بالفقد) [٢٩]

فالشيب يعد فعلا نسقياً مهيمنا له القدرة على الفعل ، إذ يحول حياة الإنسان من القوة الى الضعف ومن السعادة الى الشقاء من الإقبال على الملذات والحياة الى الإعراض عنها .

فالوعي الشعري يستشعر فداحة الشيب وقوته التدميرية المؤثرة في الوجود الإنساني لذلك يسعى الى مواجهته بفعل ضدي آخر مغاير له ، فهو هنا يستدعي الحناء ويتخذها وسيلة لمواجهة فعل الشيب الاستلابي الذي يسلب من الإنسان النضارة والفاعلية فيحاول ان يواجهه بوصفه رمزاً للغياب بوسيلة أخرى تعد إشارة رامزة للحضور وهي هنا الحناء .

(يُقَنِّئُهُ ماءُ اليُرَنَّاءِ، تحتَهُ .....) / البيت الثالث

ولاشك أن محاولة الشاعر هذا تواجه بممارسة وفعل ضدي آخر من الشيب الذي يأبى الرحيل فقوته التدميرية وفعله الاستلابي لا يقاوم ، فهو كما يصفه الدكتور مصطفى ناصف في هذا السياق بأنه (يخرج من قبضة الحناء ويتسلل في الرأس) [٣٠]

لذلك يعلن الشاعر موقفه الضدي حياله ، قائلاً : (فلا مَرْحباً بالشَّيب مِن وَفْدِ زَائرٍ.....) : البيت الرابع

وبالنظر لما يشكله الشيب من علامة من علامات الفقد المؤثرة في الوعي الإنساني لذلك نلاحظ لجوء الشاعر الى أسلوب الدعاء وأي دعاء ، الدعاء بالشر عبر توظيف لا النافية الداخلة مع المصادر المنصوبة على المفعولية المطلقة (لا مرحباً) للتعبير عن حالة التذمر والامتعاض التي

تعتريه عند حلوله !

لذلك نراه يميل الى أنسته فيجعل منه أنسانا ينطق ويتكلم ويعلن عن رغبته في مواجهته ويُمني نفسه بالعودة الى الماضي !

فالشيب عند المزرّد يبدو ضيفا غير مرحّب به (لا مرحباً بالشيب) ولعل موقف الشاعر هنا يتضاد مع السلوك العام لمنظومة القيم الثقافية المشكلة للمجتمع العربي القديم ، تلك القيم التي تحتفي بالضيف وتحيطه بالاهتمام [٣١] .

فأمام هذا المحو الذي يمارسه الشيب في الوجود الإنساني يلتجأ الشاعر الى أسلوب يرجو من خلاله الى إظهار فاعليته فنراه يستدعي الماضي الذي يعد مظهرا من مظاهر الاتصال والقدرة على الفعل ، لذلك يمكن القول ان الذات هنا تبتعد (عن الفعل أو النشاط أو بذل الجهد في صميم الحاضر من اجل الاقتصار على تأمل أشباح الماضي ، واجترار ذكرياته ، وتذوق أحلامه السعيدة ! وليس من شك في إننا حينما نستعيض عن الحياة بالحلم ، فإننا قد نجد في صور الذاكرة المختزنة ما قد يعوضنا عن آلام الحاضر ومصاعبه) [٣٢]

فالماضي في ذاكرة الشاعر العربي القديم يمنح القوة والقدرة على البقاء وفي هذا الصدد يقول الدكتور مصطفى ناصف : (كل شاعر في العصر الجاهلي لا يبدأ الحديث ، ولا يخاطب المجتمع الذي ينتمي إليه إلا عن طريق بعث الماضي ، فالماضي يأخذ صفة الإلحاح المستمر على عقل الشاعر ..... ولا يستسيغ المجتمع معنى الشعر والمعرفة إلا مقرونا بالتذكر ، والتذكر بهذه الوسيلة يصبح شعيرة من الشعائر) . [٣٣]

لذلك يقول المزرّد مستذكرا فاعليته في الماضي : [٣٤]

٦ وأَلْهُو بسَلْمَى، وهْيَ لَذٌّ حَديثُهـــا لِطالِبَها، مسؤُولُ خَيْرٍ فبَـــاذِلُ
٧ وبَيضاءَ فيها لِلْمُخـــــالِ صَبْوَةٌ ولَهْوٌ لَمَنْ يَرْنُو إلى اللَّهْوِ شاغِلُ
٨ لَيَالِيَ إِذْ تُصْبِي الحليمَ بِدَلِّها ومَشْيٍ خَزِيلِ الرَّجْعِ فيـــهِ تَفَاتُـــلُ
٩ وعَيْنَيْ مَهَاةٍ في صُوَارٍ مَرَادُهـــا رِياضٌ سَرَتْ فيها الغُيُوثُ الهَوَاطِلُ
١٠ وأَسْحَمَ رَيَّانِ القُـــــرُونِ كأَنَّهُ أَسَاوِدُ رَمَّانَ السِّبَـــــاطُ الأَطَاوِلُ
١١ وتَخْطُو على بَرْدِيَّتَيْنِ غَذَاهُمَـــا نَمِيرُ المِياهِ والعُيُـــــونُ الغَلاَغِلُ

يستحضر الشاعر هنا أيامه الماضية وهو ينعم بلقاء (سلمى) ويستغرق في سرد وذكر أوصافها الجميلة من جمال حديثها ومرحها حين تبادله الكلام ووصف سواد شعرها ثم شبه ساقيها ببردتين لبياضها وصفائها ، فهما في غاية الجمال والاستواء ، ثم نراه يفتخر بشجاعته ويستدعي فرسه لتأكيد براعته وشجاعته في الحرب ، اذ يستغرق في وصف بطولاته الحربية ، عبر استدعاء أدواته الحربية السيف والدرع الأبيات (١٢ – ٥٢) [٣٥] فالإنسان (هو الموجود الذي يستخرج من الحاضر خير ماضيه وينتزع من الماضي أجمل ما انطوى عليه) [٣٦].

ومن هنا يبدو لنا فاعلية الثنائيات الضدية وأثرها في تحليل النصوص والكشف عن خباياها ، فلو تأملنا هذه ألقصيده لنراها تتحرك وفق ثنائيتين ضديتين متغايرتين ، فالحركة الأولى في ألقصيده تتمثل في موقف الحبيبة والشيب وكل منها يمثل الصورة السالبة من جهة الموقف أو الأثر الذي يتركه في الآخر (الشاعر) فكل منهما يمثل الغياب والحركة الثانية الضدية للحركة الأولى هي حركة الشاعر نفسه عبر اللجوء الى الزمن عبر إثارة التذكر والارتداد الى الماضي واستحضار مظاهر الغياب والقوة والظفر بالحبيبة وخلفت صورة موجبة وهي بمثابة حضور لمواجهة الغياب في الحركة الضدية الأولى (هجر الحبيبة + الشيب)

ثم ينتقل الشاعر الى حركة ضدية أخرى وهي وصف الصائد الذي يمر بثلاث مراحل من حياته تنتهي بالخضوع والاستسلام لسطوة الدهر

وهكذا فحركة القصيدة من ماضي (موجب) ← حاضر (سالب الشيب) ثم وصفه لحركة الصائد من القوة الى حالة التصدع التي أصابته اثر فقده لكلبين من كلابه ثم إظهاره الخضوع والإقرار بسطوة الزمن ، إنما يجسد في كل ذلك موقف الذات المأزوم وهي تواجه فعل الزمن (المشيب) الذي يسرق من الإنسان كل مظاهر القوة والوجود .

وتبدو ثنائية الشيب والشباب عند ذي الإصبع العدواني من العلامات الرامزه الى الحضور والغياب فيقول : (٣٧)

١ إِنَّكُمَا صَاحِبيَّ لَنْ تَدَعَا لَوْمِي، ومَهمَا أُضِعْ فَلَنْ تَسَعا
٢ إِنَّكُمَا مِن سَفَاهِ رَأْيِكُمَا لا تَجْنُبَانِي السَّفَاهَ والقَذَعَا
٣ إِلاَّ بأَنْ تَكْذِبا عليَّ ولَمْ أَمْلِكْ بأَنْ تَكْذِبا وأَنْ تَلَعَا
٤ لَنْ تَعْقِلاَ جَفْرَةً عليَّ ولَمْ أُوذِ نَدِيماً ولَمْ أَنَلْ طَبَعَا
٥ إِنْ تَزْعُمَا أَنَّنِي كَبِرْتُ فلَمْ أُلْفَ بَخِيلاً نِكْساً ولا وَرَعَا

تبدو تجربة الشيخوخة عن ذي الإصبع العدواني مريرة وعلامة من علامات الفقد ، إذ يدرك أثرها المؤلم من خلال موقف الآخرين وانه بعدما أدركه المشيب إذ اخذوا ينظرون إليه بشي من الاحتقار والدونية لا لشيء سوى كبر سنه ! إذ نراه يعرض لواقعه المرير هذا بعدما تبدلت أوضاعه وساءت علاقته بأقرب الناس إليه ، إذ أخذ قومه يسفهون رأيه ويعذلونه لإنفاقه المال ويتهمونه بالكبر والخرف . وإزاء حالة التوتر التي انتابته لموقف الجميع السالب حياله ، نراه يتخذ موقفاً ضدياً لسلوكهم ليحافظ على وجوده وماهيته ، فنراه يستحضر القيم الفعالة وأفعاله البطولية ، قائلاً (٣٨)

٦	أَجْعَلُ مَالِي دُونَ الدَّنَا غَرَضاً	وما وَهَى مِلأْمُورِ فَانْصَدَعَا
٧	إِمَّا تَرَيْ شِكَّتِي رُمَيْحَ أَبِي	سَعْدٍ فَقَدْ أَحْمِلُ السِّلاَحَ مَعَا
٨	السَّيْفَ والرُّمْحَ والكِنَانَةَ وال	نَّبْلُ جِياداً مَحْشُورَةً صُنُعَا
٩	قَوَّمَ أَفْوَاقَها وتَرَّصَهَا	أَنْبَلُ عَدْوَانَ كُلِّهَا صَنَعَا
١٠	ثمَّ كَسَاهَا أَحَمَّ أَسْوَدَ فَيْ	سَنَاناً وكانَ الثَّلاثَ والتَّبَعَا

لعلّ اللافت في سياق الحديث عن تجربة الشيخوخة عند بعض شعراء المفضليات قد لا تبدو علامة من علامات الفقد والاستلاب ، بل تحمل أبعاداً اشارية تغاير الصورة المعهودة للشيخوخة في ذاكرة الثقافة العربية القديمة ، فلا تبدو موضوعة الشيب تعبيراً عن الموقف الانهزامي للذات أمام الزمن ، بل يجد فيها الشاعر عبدة بن الطيب أثراً ايجابياً يصرفه عن اللهو ، إذ يقول :[٣٩]

فعدِّ عنها ولا تَشغلكَ عن عَمَلٍ
إنَّ الصبابةَ بَعدَ الشيبِ تضليلُ

يكشف لنا هذا القول الموقف الصريح للذات الشاعرة ، فالسلوك الذي يتخذ الشاعر إزاء إعراض حبيبة (خولة) وهجرها له ، يبدو خروجاً على النسق السائد في المقطع الطللي القصيدة العربية القديمة اذ جرت العادة ان الشاعر يقف عند الديار ويظهر مشاعر الحزن والحسرة لرحيلها ، غير أنّ عبدة بن الطيب نراه هنا يسلك سلوكاً ضدياً من خلال نأيه لرحيلها ، بل واجه إعراضها عنه بالإعراض أيضا ، وهنا تبرز أهمية الثنائيات الضدية التي يوظفها الشاعر للكشف عن موقفه من الآخر الحبيبة من جهة ، والشيب من جهة أخرى ، وهذا ما يؤكد أهمية اللغة التي (يجب ان توفر صيغا مناسبة لعرض الحقيقة) [٤٠]

فالشاعر يقابل هجر الحبيبة بموقف ضدي آخر وهو النأي عنها .

(هل حَبلُ خولة بعد الهجر موصول) ¬ (فقدَّ عنها ولا تَثقلكَ عن عَمَلٍ)

(غياب الحبيبة في الزمن الماضي) ¬ (حضور الذات في الزمن الحاضر)

فهو لم يتركها فحسب بل يخاطب

ذاتـه بعـدم التفكـير بهـا ، والسـبب في ذلـك انـه لا عـودة لمرحلـة الصبـا بعـد حلـول المشـيب

(إنَّ الصبابةَ بَعدَ الشيبِ تضليلُ)

هل حَبلُ خولة بعد الهجر موصول

أم أنتَ عنها بعيدَ الدار مشغول

ان اللغـة في هـذا السـياق تبـدو كاشـفة عـن موقـف الشـاعر عـبر توظيفـه لأسـلوب الاسـتفهام : (هـل + أم) إذ مـن المعـروف إن حـرف الاسـتفهام (هـل) إذا جـاءت معـه (أمْ) في ذات الجملـة ، فتكـون (أم) في هـذه الحالـة منقطعـة أي مـا يليهـا مـن كلام ليـس لـه صلـة بـما قبلـه فتكـون حـرف ابتـداء يفيـد الإضراب بمعنـى (بـل) والتقديـر : هـل حَبـلُ خولـة بعـد الهجـر موصـول ؟

فيـأتي الجـواب سريعـاً : بـل أنـتَ عنهـا بعيـدَ الـدار مشـغول

أمـا الشـاعر علقمـة بـن عبـدة بـن النعـمان بـن قيـس ، فيعلـن رفضـه لموقـف الـذات ، قائـلاً :[٤١]

١ **طَحا بِكَ قَلبٌ في الحِسانِ طَروبُ ... بُعَيدَ الشَبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ**

٢ **تُكَلِّفُني لَيـــلى وَقَد شَطَّ وَلِيُّها ... وَعادَت عَوادٍ بَينَنـــا وَخُطوبُ**

٣ **مُنَعَّمَةٌ لا يُستَطـــاعُ كَلامُهـــا ... عَلى بابِها مِن أَن تُـــزارَ رَقيبُ**

٤ **إِذا غابَ عَنها البَعلُ لَم تُفشِ سِرَّهُ ... وَتُرضي إِيابَ البَعلِ حينَ يَؤوبُ**

٥ **فَلا تَعدِلي بَينـــي وَبَينَ مُغَمَّرٍ ... سَقَتكِ رَوايا المُزنِ حَيثُ تَصوبُ**

٦ **سَقاكِ يَمـــانٍ ذو حَبِيٍّ وَعارِضٍ ... تَروحُ بِهِ جُنـــحَ العَشِيِّ جُنوبُ**

٧ **وَما أَنتَ أَم ما ذِكرُهـــا رَبَعِيَّةً ... يُخَطُّ لَهـــا مِن ثَرمَداءَ قَليبُ**

يسـتهل علقمـة مطلـع القصيـدة بالإعـلان الضريـح عـن موقفـه مـن الشـيب اذ يعلـن عـن استسـلامه لـه والخضـوع لسـطوة الزمـن ، فتـبرز ثنائيـة الحضـور والغيـاب في هـذه الأبيـات ، ولعـل اللافـت هنـا أنّ الشـاعر يكـسر أفـق توقعنـا ، فالمتلقـي ينتظـر منـه ازاء حالـة الفقـد هـذه أن يعـرض لنـا صفاتـه الموجبـة مسـتدعياً الماضي غـير أنّـه نـراه يـصرح بإعراضه عنـه :

(وقـد شـطّ وليهـا ....) ثـم راح يكشـف لنـا عـن صفـات صاحبتـه ، فهـي حافظـة للـسر ، وتـراه يقابـل إعراضهـا عنـه (غيـاب) بذكـر أفعالهـا الموجبـة (حضـور)

وقد شطّ وليها × إذا غاب عنها البعل لم تفش سرّه / البيت الرابع (انقطاع) (اتصال)

ثم يتعزز الموقف الضدي لعلقمة من الحبيبة الهاجرة في (البيت الخامس) ففيه يكسر الشاعر أفق توقعنا مرة أخرى حيال ما سيصدر منه إزاء سلوكها ، ولهذا تصف الدكتورة مي يوسف خليف موقف علقمة من حبيبته بأنه (تخاذل غريب يطلب إليها ألاّ تعدل بينه وبين الشبان الاغرار الذين لم يجربوا الحياة)[٤٢]

ثم ينتقل علقمة في الحديث عن أحوال النساء ، قائلاً [٤٣]

٨ فَإِن تَسأَلوني بِالنِساءِ فَإِنَّني بَصيرٌ بِأَدواءِ النِساءِ طَبيبُ
٩ إِذا شابَ رَأسُ المَرءِ أَو قَلَّ مالُهُ فَلَيسَ لَهُ مِن وُدِّهِنَّ نَصيبُ
١٠ يُرِدنَ ثَراءَ المالِ حَيثُ عَلِمنَهُ وَشَرخُ الشَبابِ عِندَهُنَّ عَجيبُ
١١ فَدَعها وَسَلِّ الهَمَّ عَنكَ بِجَسرَةٍ كَهَمِّكَ فيها بِالرِدافِ خَبيبُ

ان القراءة الفاحصة لهذه الأبيات تكشف في دلالتها الباطنة عن موقف ضدي إزاء (المرأة / الحبيبة) ، فالشاعر يشير إشارة خفية الى المرأة الهاجرة فموقفه من النساء ينطوي على دلالة سلبية إزاء سلوك المرأة بشكل عام وسلوك حبيبته على وجه الخصوص ، فالنساء في نظره يعجبن بمن لديه المال ومن كان شاباً و (ليلى) هي أحداهن لذلك فإنّ هجوها له قد أفضى الى هذا الموقف الضدي ، فلا نراه يأبه لها ، بل هو من يعرض عنها ، فيتركها وينطلق الى ممدوحه عبر الناقة التي تبدو أكثر وفاءً وإخلاصاً منها !

ولو تأملنا كلمة (فَدَعها) في البيت (١١) لأدركنا مرارة الفقد والإحساس بالحيف والحزن الذي اكتنفه بعد رحيلها (فدعها ← وتسل الهم) ولعلّ هذا ما يعزز لنا الرأي السائد حول موقف الذات الشاعرة من موضوعة الشيب بعده فعلاً سالباً وعلامة رامزة الى الغياب والشعور بالخوار والضعف أمام

سطوة الزمن .

المبحث الثالث

ثنائية الحياة ضد الموت

تشغل فكرة الموت حيزاً كبيراً من تفكير الإنسان العربي في العصر الجاهلي إذ يُعدّ الموت هاجساً مقلقاً يقض مضاجع الإنسان العربي آنذاك ، يستشعر إزاءه بالخوف والفزع كلما تقدم به العمر ، فهو (الحد النهائي الذي يتحدى القيم .. ويلقى كل ما في وجودنا آمال وظلال الغناء)[٤٤] فهو النهاية التي تؤول إليها كل شيء في الحياة ، والملاحظ أن (الشاعر الجاهلي لم يكن مهتماً بالتساؤل عن بداية الزمان وإنما كان مهتماً بنهايته من حيث أنها تمثل في شعوره مشكلة ذاتية هي مشكلة الموت)[٤٥] ، ومن هنا فقد ولدت ثنائية الحياة والموت شعوراً حاداً بالتوتر في أعماق الوعي الإنساني ، فالذات الإنسانية في كينونتها تأبى الفناء لذا كان يكتنفها الحزن والشعور بالقلق كلما حان الأجل ، فالوجود البشري يتمنى ان تكون حياته بلا انتهاء ذاك (ان الحرص على الحياة وغريزة حب البقاء هي من أخص غرائز الإنسان)[٤٦]

ولهذا شغلت ثنائية الموت والحياة جلّ اهتمام الشاعر العربي في العصر الجاهلي ، ومنهم شعراء المفضليات الذين نجد لهذه الظاهرة حضورها اللافت في نصوصهم الشعرية ، ومنهم الشاعر الصعلوك الشنفرى ، إذ يقول : [٤٧]

إذا ما أَتَتْنِي مِيتَتِي لم أُبالِهَا ... ولم تُذْرِ خَالاتِي الدُّمُوعَ وعمَّتِي
ولو لم أَرُم في أَهْلِ بَيْتِيَ قاعداً ... إِذَنْ جاءَنِي بينَ العمودَيْنِ حُمَّتِي
أَلاَ لا تَعُذْنِي إِنْ تَشَكَّيتُ، خُلَّتِي ... شَفَانِي بِأَعْلَى ذِي البُرَيْقَيْنِ غَدْوَتِي
وإِنِّي لَحُلْوٌ إِنْ أُرِيدَتْ حَلاَوَتِي ... ومُرٌّ إِذا نَفْسُ العَزُوفِ اسْتَمَرَّتِ
أَبِيٌّ لِمَا آبى سَرِيعٌ مَبَاءَتِي ... إِلى كلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِي في مَسَرَّتِي

يبدو أنّ طبيعة العلاقة المأزومة بين الشاعر الصعلوك والمجتمع العربي الجاهلي قد ولدت شعوراً بالتمرد والرغبة الجامحة في مواجهة أشكال الاستلاب التي تواجههم ، فكثير منهم (كان يرفض تلك الحياة

الهامشية ويتمرد على ذلك الوضع الاجتماعي الذليل المحتقر الذي فرض عليه)[٤٨]

ومن هنا يمكن القول : ان الشعور الطاغي بالاستلاب واللاوجود جعلته لا يستسلم أبداً ويستكين للقيم والتقاليد الجاهلية التي تزدري هؤلاء وتنظر اليهم بشيء من الاحتقار والرفض .

كل تلك الصورة السلبية المخزونة في ذاكرة الثقافة العربية إزاء هؤلاء جعلتهم يتقاطعون مع الكيان الجمعي القبلي ويقبلون على مواجهته .

ولهذا يبدو لنا ان موضوعة الموت عند الشنفرى وفي هذا السياق تكشف عن نسقين متضادين ، الأول : نسق الموت الذي يبدو قوة مهيمنة تستولي على الجميع ، والثاني : نسق الرفض وعدم الانصياع والظهور بمظهر الزهو والقوة أمام نسقية الموت فاللاانتماء والاغتراب الذي يستحوذ على الشاعر الصعلوك جعلته لا يأبه لشيء ويتحدى كل شيء !

فالشعور بالحيف والدونية خلقت من ذات الصعلوك ذاتاً أخرى في مواجهة الأشياء .

(إذا ما أَتَتْنِي مِيتَتِي لم أُبالِهَا .....)

فالشنفرى لا يخشى الموت طالما انه لا ينتمي الى شيء ! فليس وراءه من يبكي عليه !

ومن هنا يمكن القول : ان خطاب الذات الشاعرة في مواجهة الموت يعد نوعاً من الرفض والضد من موقف المجتمع منهم الذي لا يساوي بينهم وبين الآخرين .

فالثنائيات الضدية الحياة والرغبة في إثبات الذات في مواجهة الموت (الغياب) التي يوظفها الشاعر في هذا السياق تُعد وسيلة من وسائل الاحتجاج ، ذلك ان (حركة الصعاليك كانت تنطوي على قيم خلقية كريمة تستهدف إصلاحاً اجتماعياً واقتصادياً للمجتمع الذي اختلت أوضاعه الاجتماعية وموازينه)[٤٩]

وتبدو ثنائية الموت والحياة جلية عند الشاعر عبده بن الطبيب ، الذي يستهل قصيدته قائلاً : [٥٠]

١ أَبَنِيَّ إِنِّي قـــد كَبِرْتُ ورَابَنِي بَصَرِي، وفِيَّ لِمُصْلِحٍ مُسْتَمْتَعُ
٢ فَلَئِنْ هَلَكْتُ لقَدْ بَنَيْتُ مَسَاعِياً تَبْقَى لكمْ منهـــــا مَآثِرُ أَرْبَعُ
٣ ذِكْرٌ إِذا ذُكِرَ الكِـــرَامُ يَزِينُكمْ ووِرَاثَةُ الحَسَـــبِ المُقَدَّمِ تَنْفَعُ

تتحـرك القصيـدة في ثنائيـة ضديـة قائمـة عـلى الحيـاة ضـد المـوت ، فالـذات الشـاعرة تستشـعر فداحـة المـوت بوصفـه غيابـاً ، لذلـك ليـس لهـا مـن سـبيل لمواجهتـه واثبـات حضورهـا سـوى الاثـر الطيـب والذكـر الحسـن .

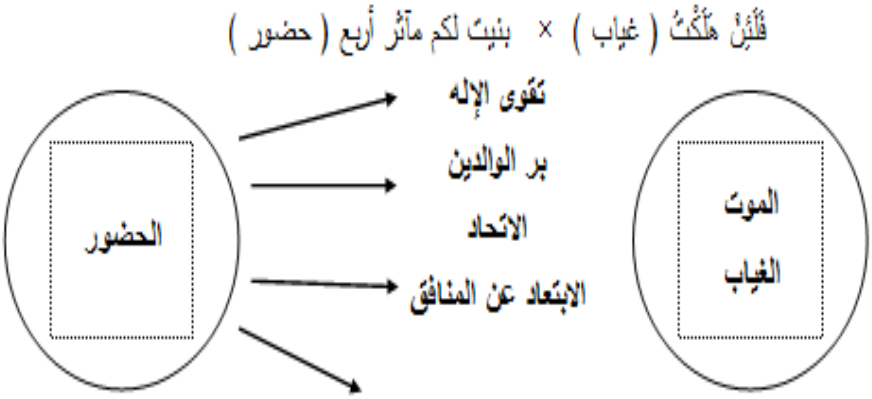

تبـدو القصيـدة للرائـي انهـا تسـير في إطـار ثنائيتـين ضديتـين ، فالـذات الشـاعرة تكشـف في مطلـع القصيـدة عـن مأسـاوية الزمـن في حياتهـا : (أني قـد كـبرت) ، فالكـبر يحيـل الى المـوت : إني قـد كـبرت ← فكيـف هلكـت فالزمـن في حركـة ضديـة مـع مـا تسـعى إليـه الـذات الإنسـانية وهـي حـب البقـاء ، فلفظـة (قـد كـبرت) نستشـف منهـا الشـعور بالتوتـر والإحسـاس بالمـوت الـذي يكشـف الوعـي الشـعوري ، فالـذات الإنسـانية (يتنازعهـا عامـلان قويـان همـا حـب الحيـاة والخـوف مـن المـوت) [٥١] فالكـبر مـن دون شـك إشـارة رامـزة الى المـوت الـذي يكتنـف الإنسـان

ولهذا نجد الذات الشاعرة في هذا السياق تُذعن له ولحركته التي هي ضد الحياة ولكنها في أعماقها تأباه من خلال الرغبة المضمرة في الحياة ولكن كل المحاولات لا تجدي نفعاً ، لذلك يقول عبدة بن الطبيب في ختام قصيدته : (٥٢)

ولقد عَلِمْتُ بأَنَّ قَصْرِيَ حُفْرَةٌ ... غَبْرَاءُ يَحْمِلني إِليها شَرْجَعُ
فبَكَى بَنَاتِي شَجْوَهُنَّ وزَوْجَتِي ... والأَقْرَبُونَ إِليَّ، ثُمَّ تَصدَّعُوا
وتُرِكْتُ في غَبْراءَ يُكْرَهُ وِرْدُها ... تَسْفِي عَلَيَّ الرِّيحُ حِينَ أُوَدَّعُ
فإِذا مَضَيْتُ إِلى سَبِيلِي فَابْعَثُوا ... رَجُلاً لهُ قَلْبٌ حَدِيدٌ أَصْمَعُ
إِنَّ الحوادثَ يَخْتَرِمْنَ، وإِنَّما ... عُمْرُ الفَتَى في أَهلِهِ مُسْتَوْدَعُ
يَسْعَى ويَجْمَعُ جاهِداً مُسْتَهْتِراً ... جِدًّا، ولَيْسَ بآكِلٍ ما يَجْمَعُ
حتَّى إِذا وَاقَى الحِمَامُ لِوَقْتِهِ ... ولكُلِّ جَنْب لا مَحَالَةَ مَصْرَعُ
نَبَذُوا إِليهِ بالسَّلاَمِ فلَمْ يُجِبْ ... أَحَداً وصَمَّ عنِ الدُّعَاءِ الأَسْمَعُ

ينطوي المقطع الأخير من هذه العينية على ثنائية ضدية ، ثنائية الموت (السالب) والإنسان (المسلوب) ، حضور الموت وغياب الإنسان ، فالشاعر في هذا السياق وعبر دلالة الأبيات الحكمية يحاول الكشف عن أبعاد ما ينتظرها من مصير بعد ان يدركه الموت ، فهو يستشعر الفاجعة ودنو الأجل .

ابني اني قد كبرت : البيت الأول ¬ (ولقد عَلِمْتُ بأَنَّ قَصْرِيَ حُفْرَةٌ)

ويتشكل عبر هذه الدلالات صورة لسلطة الموت التي يخضع له الجميع (نَبَذُوا إِليهِ بالسَّلاَمِ فلَمْ يُجِبْ .....) وهكذا جاءت هذه الثنائية هنا (ثنائية الموت والحياة) لتكشف عن جدلية الصراع القائم في أعماق الإنسان العربي القديم إزاء ما ينتظره من مصير وهو يواجه سطوة الموت الذي يأتي على كل شيء .

الخاتمة

توصّل البحث الى جملة من النتائج منها :

١- أظهر البحث جدوى الثنائيات الضدية ودورها في حياة الإنسان ، إذ وظفها شعراء المفضليات في عدة مفاصل من قصائدهم للتعبير عن همومهم

وقضاياهم المتشابكة وبلورة لرؤيتهم للوجود والحياة .

٢- إنّ عملية استجلاء تلك الثنائيات ورصد حركتها في النصوص الشعرية لم تكن عملية يسيرة ، ذلك ان كثيراً من تلك الثنائيات هي غائرة في أعماق النصوص تستوجب قراءة فاحصة لتلك النصوص مع محاولة لربطها بالمحيط الاجتماعي وواقع الحياة العربي في عصر ما قبل الإسلام .

٣- بيّن البحث أنّ تجربة الشيب عند شعراء المفضليات لا تتخذ مساراً واحداً ، فهي عند بعضهم علامة من علامات الاستلاب في حين نجدها عند بعضهم الآخر تحمل أبعاداً رمزية فلا تبدو تعبيراً عن الموقف الانهزامي أمام الزمن ، بل لها اثر ايجابي ينصرف الشاعر من خلالها عن اللهو والتصابي .

٤- كشف البحث عن فاعلية توظيف ثنائية الحياة ، والحياة عند الشاعر الصعلوك ، الذي اتخذها وسيلة من وسائل الاحتجاج حيال المجتمع الذي لا يساوي بينهم وبين الآخرين .

الهوامش والتعليقات :

(١) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق : عبد السلام هارون : ٦٤

(٢) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا : ١ / ٣٧٩ – ٣٨٠

(٣) لسان العرب ، ابن منظور : مادة (ضدد)

(٤) الكتاب ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) ، تحقيق ، عبد السلام هارون : ١ / ٢٤

(٥) ينظر : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس : ٩٧ – ٩٨

(٦) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي : ١ / ٣٠٥

(٧) سورة الذاريات ، آية : ٤٩

(٨) علم الأسلوب والنظرية البنائية ، د. صلاح فضل : ٢ / ٣٤٤

(٩) مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ، ديفيد ديتش ، ترجمة د. محمد يوسف نجم : ١٦٥

(١٠) جدلية الخفاء والتجلي ، دراسات بنيوية في الشعر ، د. كمال أبو ديب : ٩ – ١٠

(١١) ينظر : شرح المعلقات السبع ، د. سلمان العطار : ٩٧

(١٢) الخطاب الشعري الجاهلي ، رؤية جديدة ، د. حسن مسكين : ٤٣

(١٣) المفضليات ، شرح وتحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون : ١١٣ – ١١٤ الشؤون : مجاري الدمع واحدها شأن ، سجم : مصدر ، يقال : سجم الدمع أي سال ، المسجور : المنظوم المسترسل ،

أغـدرة : جمـع غديـر ، السـيدان : ارض بنـي سـعد ، الخوالـد : البواقـي ، أراد أنّ الاثاقـي حفظـت الرمـاد مـن تـذروه الريـاح ، جـذم : البقيـة مـا تبقـى مـن الـشيء ، البـوراح : الريـاح الشـديدة ، تقـرو : تتبـع

(١٤) الثنائيـات الضديـة ، دراسـات في الشـعر العـربي القديـم ، د. سـمر الديـوب : ٥٤

(١٥) الثنائيـات الضديـة في الشـعر الجاهـلي ، دراسـة تحليليـة ، حنـان أبـو قاسـم محمـد ، رسـالة ماجسـتير ، كليـة الآداب ، جامعـة أسـيوط ، ٢٠٠٠ : ٣

(١٦) مشكلة الانسان : ٧٦

(١٧) المفضليات : ٢٤١ – ٢٤٢

تروحـوا : سـاروا في الـرواح ، وهـو مـن لـدن زوال الشـمس الى الليـل ، تزجـي : تسـوق سـوقاً ضعيفـاً ، الخنـس : وهـو قـصر الانـف ولزوقـه بالوجـه ، سـخالها : أولادهـا الجـاذر ، جمـع جـؤذر وهـو ولـد البقـر، الـورد : الـذي تعلـوه حمـرة (٤) يعترينـا : يصـير الينـا ، القهـوة : الخمـر . الصهبـاء : الشـقراء او الحمـراء ، يقـلي : ترفـع ، الناجـود : المصفـاة ، ثـوب : أمامـت ، يطـان : يجعـل عليهـا الطيـب ، السـباء : اشـتراء الخمـر ، جيـلان ، بالكـسر : بلـد مـن بلـاد العجـم

(١٨) جماليـات التحليـل الثقـافي ، الشـعر الجاهـلي أنموذجـاً ، د. يوسـف عليـمات : ٢٢٩

(١٩) ينظـر الثنائيـات الضديـة في شـعر ابـن زيـدون ، رسـالة ماجسـتير ، ضيـاء احمـد عبـد جاسـم ، كليـة التربيـة للعلـوم الإنسـانية ، جامعـة ذي قـار ، ٢٠١٥ ، ٩٥

(٢٠) ينظـر : النابغـة الجعـدي وشـعره . د. إبراهيـم عـوض : ٣٦

(٢١) المفضليات : ٢٣٤

الكثيـب : قريـة بنـي محـارب بالبحريـن ، الخـود : الفتـاة الحسـنة الخلـق الناعمـة ، الريـة : الخمـر ، السـباء : اشـتراء الخمـر ، المغـيرة : القـوم يغـيرون ، الجنـوب : الريـح التـي تقابـل الشـمال ، السـوابق : الخيـل السـابقة ، غلواؤهـا : ارتفاعهـا ، المحالـة : الشـديدة المحـال ، السـبيبة : الشـقة ، السـيراء : مـن ثيـاب اليمـن

(٢٢) لسـانيات الخطـاب وانسـاق الثقافـة ، د. عبـد الفتـاح احمـد يوسـف : ٢٢٣

(٢٣) ينظـر : مقدمـة الشـعر العـربي ، ادونيـس : ٤٦

(٢٤) جماليـات النقـد الثقـافي ، نحـو رؤيـة للانسـاق الثقافيـة في الشـعر الاندلـسي ، د. احمـد جمـال المرازيـق : ١٣٥

(٢٥) الادب الجاهـلي قضايـا وفنـون ونصـوص ، د. حسـني عبـد الجليـل يوسـف : ٣٧٩

(٢٦) جماليـات الشـعر الجاهـلي ، د. هـلال الجهـاد : ١٥٨ – ١٥٩

(٢٧) ينظـر : مشـكلة الحيـاة ، د. زكريـا ابراهيـم : ١٤٩

(٢٨) المفضليات : ٩٣ – ٩٤

فـؤادي : مفعـول (يزايـل) ، وخـط الشـيب : فشـوه في الـرأس ، يقنئـه : يجعلـه ، احمـر قانئـاً ، اليرقـاء : الحنـاء ، يريـد انـه يخضـب بهـا ، الشـكير : اول مـا يثبـت مـن الشـعر ، الثغامـة : نبـت ابيـض الثمـر والزهـر ، فاصـل : خـرج مـن خضابـه

[٢٩] جماليات التحليل الثقافي ، الشعر الجاهلي نموذجاً ، د. يوسف عليمات : ١٨١

[٣٠] صوت الشاعر القديم ، د. مصطفى ناصف : ٢٢٩ ، وينظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، د. حسين عطوان : ١٥٥ – ١٥٦

[٣١] ينظر : جماليات التحليل الثقافي . د. يوسف عليمات : ١٧٨

[٣٢] مشكلة الحياة ، د. زكريا إبراهيم : ٢٦١

[٣٣] قراءة ثانية لشعرنا القديم : ٥٥

[٣٤] المفضليات : ٩١

المخالمة : المصادقة والمغازلة ، الصبوة : الخفة للهو حتى يفعل كما يفعل الصبيان ، يرنو : يديم النظر ، دلها : ما تدل به من حسنها وملامحها ، الخزيل : المتقطع ، الرجع : الرجوع يريد انها تهتز في مشيها للين عظامها ، التفاتل : الانفتال أي تتشي في مشيتها ، الصوار : القطيع من البقر

[٣٥] ينظر المفضليات : ٩٥ – ٩٩

[٣٦] مشكلة الحياة : ٢٥٤

[٣٧] المفضليات : ١٥٣ – ١٥٤

السفاه والسفه : الجهل ، القذع : الكلام القبيح ، تلقا : تكذبا ، الجفوة : من اولاد الالفخم العظيمة الجوف واراد بالجفوة هنا : التحقير لأن الدية انما تكون بالابل ، فيقول انتما لن تحملا عين شيئاً ولو أنه جفرة

[٣٨] المفضليات : ١٥٤ – ١٥٥

[٣٩] المفضليات : ١٣٦

[٤٠] لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة ، د. عبد الفتاح احمد يوسف : ٢٢٣

[٤١] المفضليات : ٣٩١ – ٣٩٢

طحابك : اتسع بك وذهب كل مذهب ، يكلفي : يعن يكفي قلبي ولها : عهدها ، الكلام : بكشسر الكاف : مصدر كالمة ، كامكالمة ، رقيب : يحفظها حفظ صيانة لا حفظ ريبة ، المعمر : القهر الذي لم يجرب الامور ، يمان : يريد سحايا ارتفع من شق اليمن واليماني لا يخلف ، الحبي : القريب من الارض .

[٤٢] القصيدة الجاهلية في المفضليات ، دراسة موضوعية فنية ، د. مي يوسف خليف : ١٨٣

[٤٣] المفضليات : ٣٩٢

[٤٤] مشكلة الانسان : ١١١

[٤٥] أدب التاريخ عند العرب ، د. عفت الشرقاوي : ١٧٦

[٤٦] الادب الجاهلي ، قضايا وفنون ونصوص ، د. حسني عبد الجليل يوسف : ٣١٤

[٤٧] المفضليات : ١١٢

لم ادم : لم ابرح ، الخمة : المنية ، الخلة : الخليل ، ذو البريقين : موضع .

[٤٨] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف : ١١٢

[٤٩] القصيدة الجاهلية في المفضليات ، د. مي يوسف خليف : ١٢٢

[٥٠] المفضليات : ١٤٥ – ١٤٦

[٥١] روح العصر ، دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة ، د. عز الدين اسماعيل : ١٥٢

[٥٢] المفضليات : ١٤٨ – ١٤٩

قصري : اخر أمري ، الشرجع : خشب

يشد بعضه الى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى ، الشجز : الحزن ، الاصمع : الحديد المجتمع ليس بمنتشر ، يخترمن : يقتطعن ويستأصلن ، المستهتر : المولع بالشيء الذاهب العقل فيه من حرصه عليه .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

١ –أدب التاريخ عند العرب ، د. عفت الشرقاوي ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٧ .

٢–الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، د. حسني عبد الجليل يوسف ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٤٢١ ه – ٢٠٠١ م .

٣–الثنائيات الضدية ، دراسات في الشعر العربي القديم ، د. سمر الديوب ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزوارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٩ .

٤–جدلية الخفاء والتجلّي ، دراسات بنيوية في الشعر ، د. كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، شباط (فيراير) ، ١٩٨٤ .

٥–جماليات التحليل الثقافي ، الشعر الجاهلي نموذجاً ، د. يوسف عليمات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٤ م .

٦–جماليات الشعر الجاهلي ، دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي ، د. هلال الجهاد ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الاولى ، حزيران ٢٠٠٧ .

٧–جماليات النقد الثقافي ، نحو رؤية للانساق الثقافية في الشعر الاندلسي ، د. احمد جمال المرازيق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٩ .

٨–الخطاب الشعري الجاهلي ، رؤية جديدة ، د. حسن مسكين ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠٥ .

٩–روح العصر ، دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة ، د. عز الدين اسماعيل ، دار الرائد العربي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٧٢

١٠–شرح المعلقات السبع ، تبسيط للشروح القديمة مع تحليل ودراسة ، د. سليمان العطار ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

١١–الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة ، ٢٠١٩ م .

١٢–الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، لأبي الحسين احمد بن فارس ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٩٦٣ .

١٣–صوت الشاعر القديم ، د. مصطفى ناصف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢

١٤–قراءة ثانية لشعرنا القديم ، د. مصطفى ناصف ، دار الاندلس للطباعة والنشر والتاوزيع ، بيروت – لبنان ، ط / ٢

، ١٤٠١ ه – ١٩٨١ م
١٥-القصيدة الجاهلية في المفضليات ، دراسة موضوعية فنية ، د. مي يوسف خليف ، الناشر ، مكتبة غريب ، القاهرة ، د. ت
١٦- كتاب سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الاول ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م .
١٧-لسان العرب ، ابن منظور الافريقي المصري ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، ١٩٥٥ .
١٨-المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي ، ضبطه وصممه ووضع حواشيه فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ ه – ١٩٩٨ م .
١٩-مشكلة الإنسان ، د. زكريا إبراهيم ، دار مصر للطباعة ، د. ت .
٢٠-مشكلة الحياة ، د. زكريا إبراهيم ، دار مصر للطباعة ، د. ت .
٢١-المعجم الفلسفي جميل صليبا ، الجزء الأول ، دارا لكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٢ .
٢٢-معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٧٩ .
٢٣-المفضليات ، المفضل بن محمد بن يحيى الضبي ، شرح وتحقيق احمد محمد شاكر ، د. عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، الطبعة التاسعة .
٢٤-مقدمة للشعر العربي ، أدونيس ، دار الساقي ، طبعة جديدة منقحة ومزيدة ، ٢٠٠٩ .
٢٥-مناهج النقد الادبي بين النظرية والتطبيق ، ديفيد ديتش ، ترجمة د. محمد يوسف نجم .
٢٦-النابغة الجعدي ، حياته وشعره ، د. ابراهيم عوض ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

الرسائل والاطاريح :

١-الثنائيات الضدية في شعر ابن زيدون ، رسالةى ماجستير ، ضمياء احمد عبد جاسم الموسوي ، جامعة ذي قار ، كلية التربية الانسانية ، ١٤٣٦ ه – ٢٠١٥ م .
٢-الثنائيات الضدية في الشعر الجاهلي ، دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير ، حنان ابو قاسم محمد ، كلية الاداب ، جامعة اسيوط ، ١٤٣٢ ه – ٢٠١١ م .

حولية المنتدى